الحصن البيزنطى بتبرسق

نوفل حنفى

تعتبر مدينة تبرسق منذ العصور القديمة مدينة هامة لموقعها الإستراتيجي وأهميتها الاقتصادية وهو ما يفسر اهتمام الرومان المتزايد بها، حيث تدرّجت في سلم الارتقاء لتصل إلى منزلة المدينة الرومانية(,Michel (Christol) « Gallien, Thygga et Thubursicum Bure », antiquités Africaines 14, 1979). لم تكن تبرسق مجرّد قرية فلاحية إذ كان لها نظام بلدي ومؤسسات دينية ومدنية. يقول رونى كانا Rene CAGNAT وهو دكتور في الاداب في كتاب «رحلة الى تونس» ان تبرسق قد تشكلت تدريجيا أولا كقرية بسيطة يسكنها المزارعون ، ثم مدينة تتمتع بعض الحقوق البلدية ، وأخيرًا بلدية في بداية القرن الثالث ، كان لها مصير المراكز الرئيسية في إفريقيا الرومانية

وقد عرفت اهتماما متعاظما في الفترة البيزنطية حيث أقيم بها حصن منيع من ضمن العديد من الحصون التي كانت مخصّصة لحماية الأراضي التي تشرف على وادي مجردة مثل حصن عين طونقة Thignicaوحصن عين الحاجة Agbiaوحصن دقّة Thuggaومن أجل الاحتماء من الهجمات القادمة من الغرب والجنوب. «توماس شاو Thomas SHAW 1694-1751))»

دور الحصن البيزنطى

تعتمد المدن القديمة في حماية نفسها على المواقع المحصّنة طبيعيا من اجل الدّفاع عن التجمّعات السكنيّة. ونظرا لتنوّع طرق الهجوم وآلات الحصار الناجعة بات من الضروري بناء الحصون قصد تحقيق الاستقرار الأمني والاحتماء من الهجومات في الفترات التي تكثر فيها التوترات والاضطرابات وقد اعتبر «هنرى سلادان 1882-1883 H. Saladin » ان حصن تبرسق قد بني من شظايا مأخوذة من جميع الجوانب ، عتبات و نقوش و أعمدة و الحجارة من جميع المصادر ، إلخ ... تم التقاطها على عجل في وقت إعادة بناء هذا التحصين من قبل توماس في ذلك الوقت ، اذ من المحتمل أن المدينة ، قد دمرها الوندال في تلك الحقبة.

« و لا يقتصر دور الحصن على حماية القرية الموجودة داخله وإنّما يقوم بدور الحامي لمنطقة كاملة «(حسن محمد، المدينة و البادية بافريقية في العهد الحفصى، السلسلة تاريخ4 المجلد ، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 39). وقد تطلّب الحذر من الهجمات القادمة من الغرب ومن الجنوب والاستعداد لدحر الهجمات التي يقودها البربر وعدم السّماح لهم بالسيطرة على سهول وادي مجردة(الطالبى محمد، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، دار المغرب الاسلامى، بيروت، 1985، ص219.) التفكير في تحصين مدينة تبرسق إذ أمر «جوستين الثاني(565م – 578م)، Justin II » إمبراطور بيزنطة، وزوجته « آليا صوفيا (601م) Aelia Sophia» بحماية مدينة تبرسق وتعزيز تحصيناتها الدفاعية، وقد أوكلت هذه المهام إلى حاكم أفريكا البيزنطية « توماس» الذي أنجزها فيما بين سنوات 565م، و568 و569م (Pringle, Denys, The de fence of Byzantine Africa From Justiniqn to the Arab conquest. An accont of the military and archeology of the Africain provinces in the sixth and seventh centries, partries, parti I, (2vol), B. A. R international series 99 (i) 1981)

وتقدّم لنا النقيشة التخليدية المثبتة فوق الباب الرئيسى لهذا الحصن المعطيات التاريخية الأصلية لهذا الإنجاز، وفقا لما ذكره العديد من الرحّالة والباحثين أمثال «رونى كانيا R. Cagnat » و «هنرى سلادانH. Saladin» و» بليسيى Pellissier» و»شاوShaw» وبربروقر Berbrugger غيرهم...



نقيشة الحصن :

نصّ النقيشة باللغة اللاتينية:

«SALVIS DOMINIS NOSTORIS XRISTANIS SIMIS ET INVITISSIMIS IMPERATORIBUS IVSTINO ET SOFIA A VGUS TTS HANG MUNITIONEM TOMAS EXCELLENTISSIMUS PRFFCTUS FELICI TER AE DIFICAUIT»

وهو ما ترجمته باللغة الفرنسية:

«Pour le salut de nos maitres, très chrétiens et très invincibles souverains, Justin II et Sophie, Thomas, très excellent préfet (du prétoire d' Afrique) ; a heureusement bâti cette fortification».

وترجمته باللغة العربية:

من أجل خلاص أسيادنا، المسيحيين الذين لا يقهرون وهم، جوستين الثاني وصوفي وتوماس، وهو محافظ ممتاز جدًا (من دار الولاية في إفريقيا) ؛ أوكلت له لحسن حظنا مهمة بناء هذا الحصن ».

خصائص الحصن ومكوناته :

تميّز الحصن البيزنطي هندسيا بشكل خماسي الأضلاع Pentagonal ” وتبلغ قياساته 150م 140 xم أمّا مساحته فتقدّر بحوالي 1.76 هك»

(1) Diehl, Charles, L'Afrique byzanntine: histoire de la domination byzantine en Afrique (583. 709) Brut Franklin, Tome I, Tome I, p220.

إلاّ أنّه من الصّعب أن نتعرف بدقّة على جدران هذا الحصن لأنها قد غابت عن الملاحظة بحكم سطوة البناءات الحديثة التي التصقت بالحصن في العديد من مكوّناته، ونظرا إلى غياب الحفريّات يذهب بعض الباحثين (علاء الدين بوغمدة « مدينة

تبرسق و ناحيتها 2005، تحت اشراف الاستاد محمد حسن) إلى أنّ هذه البناءات أقيمت فوق الآثار الرومانية ويمكن أن نبرهن على ذلك من خلال وجود بعض القنوات والآبار التي تتشابه إلى حدّ كبير مع الخصائص الحضارية للعهد الروماني وصولا إلى الفترة العربية والحقبة المعاصرة باعتبار أنّ هذه القنوات والآبار مازالت موجودة إلى الآن خاصّة في منطقة «القصر» وهذا ما اكتشفناه مثلا في البئر القديمة الموجودة في منزل « دار الجنيدي»، وفي غيرها من الآبار القديمة، ويلاحظ بالو Ballut عام 1903 أنّ هذه القلعة البيزنطية، «قد اقتضى تشييدها العاجل اقتلاع الأحجار الصقيلة من المعالم القديمة»، وهو نفس ما انتهى إليه موكلار Camille Muclaire عندما أشار إلى أنّ هذه التحصينات تقوم على « جدران رومانية عتيقة جددها البيزنطيون».

يبلغ عرض جدران الحصن البيزنطي قرابة 2.30 م، ويصل ارتفاعها من 8 إلى 9 أمتار، أمّا طريقة بنائها فهي طريقة بناء تتشابه مع الطريقة المتعارف عليها بالمقاطعة الإفريقية في القرن 6 م لأنّنا نعثر على واجهات متكونة من حجارة مصقولة وكبيرة الحجم، أمّا الحجارة الصغيرة فيقع استعمالها لملء الجدار من الداخل(Diehl (Ch), L'Afrique (byzantine, , Tome I p 176) (صورة 1)، ولا يمكن أن نتغافل عن تقنية البناء التي تعرف «باوبوس أفريكانوم «Apus Africanum التي تتميز بتقاطع أحجار كبيرة وأفقية مع غيرها من الأحجار العمودية التي تكون عبارة عن دعامات يقع ملء ما يقع بينها بحجارة ذات أحجام صغيرة (moellons))، يقع ربطها ببعضها البعض باستعمال الملاط، وهو ما جعل هذه الطريقة تنجح إلى حد بعيد في الملاءمة بين صلابة البناء وعدم ارتفاع التكلفة (صورة 2).

والمتأمل في أجزاء الحجارة الضخمة في جدران الحصن يلاحظ أنّها تحمل في قسم منها كتابات لاتينية بما يقوم دليلا على انه قد وقع إعادة استعمال حجارة البناءات التي تهدمت من المدينة الرومانية (صورة 3).

علما أنّ كل واجهات الحصن قد حافظت على وجودها من جميع الجهات، فظلت باقية على وجه الدهر، باستثناء الواجهة الجنوبية التي أشار «شارل ديالC. Diehl» منذ سنة 1893 إلى أنّها كانت مهدّمة في جزء منها، وقد لاحظ كانيا وصلادان عام 1881 أنّ هذه النحصينات قد كانت « في حالة جيّدة في جل نقاطها تقريبا».

يمكن القول إذن إنه من الصّعب أن نتتبع بكل دقة جدران هذا الحصن لأنها تداخلت مع العديد من البناءات الحديثة من الداخل والخارج باستثناء الواجهة الشمالية وجزء من الواجهة الشرقية اللتين يمكن تتبعهما من الخارج فقط. عندما نظر شو de M. Shaw في كتاب « رحلات شو » في المستوى الداخلي للحصن لاحظ وجود متاهة لا تنفصم من شوارع ضيقة متعرجة تصطف على جانبيها منازل منخفضة مبنية على أنقاض المدينة الرومانية ، وثمة قباب ومآذن العديد من المساجد الجميلة على هذا المجمع الذي لا يزال بإمكانك ملاحظته من خلاله رؤية أقسام ضخمة من الجدران محاطة بالإنشاءات. هذه هي بقايا القلعة القديمة التي بناها الحاكم توماس في نهاية القرن السادس.

وبهذا الحصن أربعة أبراج مربّعة لا تزال قائمة في بعض أجزائها، لكننا نجد أن « سالادان "Saladin" قد ذكر ستة (6) أبراج، نجد خمسة (5) منها بالزوايا الخمس، وبرجا إضافيا بالجدار الشمالي يتميز عن البقية، أمّا «ديال "Diel فقد تحدّث عن سبعة (7) أبراج باعتبار البرج السابع المندثر



ومن المرجّح انه كان قائما في الجدار الشرقي حيث تتصل القلعة البيزنطية بأسوار المدينة.

ابوابه :

يعتمد الحصن البيزنطي على بابين اثنين، يوجد الباب الأول بالواجهة الشمالية، وهو ما يوافق في التسمية المتداولة باب الجبلي وقد كان يعرف أيضا بباب باجة، وقد أشار قاستون فويلييG. Vuillier عام 1896 إلى هذا الباب بقوله «إنّ البيزنطيين قد حافظوا على قوس النصر الروماني ولكنهم جعلوا فيه بابا أصغر تعلوه النقيشة الحاملة لاسم المدينة».

أمّا الباب الثاني فنجده بالواجهة الشرقية ويعرف بباب القبلي. الباب الشمالي يوجد في نفس مكان الباب الروماني وهو يتشابه مع قوس نصر عرضه حوالي 10م ويعود إلى القرن 3م (Pringle (Denys p 244,) ويرتكز هذا الباب على أربعة (4) أساطين مضلعة تحمل أربعة (4) تيجان من النوع الكورنثي تحمل بدورها مجموعة من الحجارة المهندمة وهو الذي يحمل العقد الذي ينظم أعلى الباب. نلاحظ أسفل هذا العقد بحوالي ثلاثة (3) أمتار فقرات عقد ثان معاصر للحصن البيزنطي(L. Carton, de Tunis a Dougga, imprimerie, L. Danel, 1893, p13.)) عرضه حوالي 2.40م وهو مغمور بالتراب في جزء كبير منه، يقدّر بأربعة (4) أمتار، لأننا لا نشاهد منه سوى أجزاء من العقد الذي ينظم الباب من الأعلى (صورة 4). اعتبر» هنرى سالادان» Rapport sur la mission faite en 1882-1883 ان هذا الباب يوجد أسفل المسلك الذي يعمل كمصرف لمعظم مياه المدينة ، أثناء هطول الأمطار الغزيرة .،كما ان الباب مدفون حاليًا بما لا يقل عن اربعة أمتار.

يوجد الباب الثاني للحصن في الجهة الشرقية التي تشرف على وادي خلاّد وقد وقع تصميم هذا الباب بالاعتماد على تقنيات أقواس النصر الرومانية، ويعتبر «قوكلار"Gaukler هذا الباب عبارة عن معلم بيزنطي ضاعت أجزاؤه العلوية واندثرت حجارته(Pringle Denys, p244)، وهكذا فإنّ خاصيّة المدخل الشمالي للحصن المتمثلة في المحافظة على قوس النصر الروماني الذي يعود إلى القرن الثالث الميلادي، وإقامة باب بيزنطي في نفس المكان، ممّا يؤكد أهمية التلاقح الحضاري في مدينة تبرسق من خلال إقامة هذا الحصن على أنقاض السور الرّوماني الذي كان يحيط بالمدينة القديمة وهو ما أكده حسن حسنى عبد الوهاب في كتاب «خلاصة تاريخ تونس» حيث استفاد البيزنطيون من الحصون الرومانية القديمة.

إنّ وجود مدخلين بالجهة الشمالية والشرقية للحصن يعود في جذوره العميقة إلى أهداف اقتصادية وسياسية إذ كان المدخل الشمالي يؤدى إلى طريق رومانية قديمة تبعد عن الواجهة الشمالية للحصن بحوالي خمسة (5) أمتار، في حين كان المدخل الشرقي يشرف على وادي خلاّد، ومن خلاله يمكن الاعتماد على الطريق الرومانية القديمة قرطاج- تبسّة « Carthage- Théveste» وهو ما يقيم الحجة على الدور الاقتصادي للحصون البيزنطية إلى جانب وظيفتها العسكرية والدفاعية بل إنّ بعض الباحثين على غرار «تيبار» (Thebert (y) Thébert» Permanences et mutations des espaces urbains dans les villes de l'Afrique du Nord orientale: de la cité antique à la cité médiévale, in Cahier de Tunisie n 137.138, 3 eme Trim., 1986) قد أكد وجود أبعاد سياسية وإيديولوجية تفسر إقامة الحصون البيزنطية.

يعتبر حصن تبرسق من أهم الحصون بمنطقة التل وبإفريقيا البيزنطية عامة، وهو من أهم المعالم التي تشهد على تزاوج الحضارة الرومانية والبيزنطية والعربية الإسلامية في مدينة تبرسق، ولعل صموده إلى الحقبة المعاصرة لهو أكبر دليل على أهميته التاريخية والإستراتيجية في الدفاع عن المدينة وفي دحر الهجمات القادمة من الغرب ومن الجنوب والتي تستهدف سهول وادي مجردة بحيث أصبح هذا الحصن شرطا أساسيا للتوسع العمراني وإعادة التعمير خلال الفترة العربية وخاصة خلال العهدين الموحدى والحفصى حيث استقرّ به الموحدون، فيما يذكر ابن خلدون في تاريخه وابن ناجي في معالم الإيمان، وتدعم تواجدهم والعبارة للأستاذ محمد حسن، بعد أن عيّنوا على رأسه عاملا وقاضيا.



